

تفسير ابن كثير

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ^ط وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

وقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) فيه أقوال للأئمة من السلف : أحدها : لا تدركه في الدنيا ، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمدا أبصر ربه فقد كذب . وفي رواية : على الله فإن الله يقول : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) . رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي الضحى ، عن مسروق . ورواه غير واحد عن مسروق ، وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه . وقد خالفها ابن عباس ، فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين . والمسألة تذكر في أول " سورة النجم " إن شاء الله تعالى . وقال ابن أبي حاتم : ذكر محمد بن مسلم ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا يحيى بن معين قال : سمعت إسماعيل بن علية يقول في قول الله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال : هذا في الدنيا . قال : وذكر أبي ، عن

هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك .وقال آخرون : (لا تدركه الأبصار) أي : جميعها ،

وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة .وقال آخرون ، من

المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية : إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة . فخالفوا أهل

السنة والجماعة في ذلك ، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله

. أما الكتاب ، فقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [القيامة : 22 ، 23]

، وقال تعالى عن الكافرين : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) [المطففين : 15]

.قال الإمام الشافعي : فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى .وأما السنة ،

فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وأنس ، وجابر ، وصهيب ، وبلال ،

وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن المؤمنين يرون الله في الدار

الآخرة في العرصات ، وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين

.وقيل : المراد بقوله : (لا تدركه الأبصار) أي : العقول . رواه ابن أبي حاتم عن علي

بن الحسين ، عن الفلاس ، عن ابن مهدي ، عن أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ

أهل مكة أنه قال ذلك . وهذا غريب جدا ، وخلاف ظاهر الآية ، وكأنه اعتقد أن الإدراك

في معنى الرؤية ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية لله تعالى في الآخرة ونفي الإدراك ، فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ، ما هو؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال الله تعالى : (ولا يحيطون به علما) [طه : 110] ، وفي صحيح مسلم :

" لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " ولا يلزم من هذا عدم الثناء ، فكذا هذا . قال العوفي ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال : لا يحيط بصر أحد بالملك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد ، حدثنا أسباط عن سماك ، عن عكرمة ، أنه قيل له : (لا تدركه الأبصار) ؟ قال : ألسن ترى السماء؟ قال : بلى . قال : فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) هو أعظم من أن

تدركه الأبصار. وقال ابن جرير : حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا خالد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو عرفة ، عن عطية العوفي في قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [القيامة : 22 ، 23] ، قال : هم ينظرون إلى الله ، لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم ، وبصره محيط بهم . فذلك قوله : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) . وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبي حاتم هاهنا ، فقال : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب بن الحارث السهمي حدثنا بشر بن عمار ، عن أبي روق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال : " لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا واحدا ، ما أحاطوا بالله أبدا " غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم . وقال آخرون في قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) بما رواه الترمذي في جامعه ، وابن أبي عاصم في كتاب " السنة " له ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وابن مردويه أيضا ، والحاكم في مستدركه ، من حديث الحكم بن أبان قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد

ربه تبارك وتعالى . فقلت : أليس الله يقول : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)

الآية؟ فقال لي : " لا أم لك ذلك نوره ، الذي هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء "

وفي رواية : " لا يقوم له شيء " قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه

.وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ،

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض

القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ،

حجابه النور - أو : النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه

"وفي الكتب المتقدمة : إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ، إنه لا يراني

حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . أي : تدعثر . وقال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل

جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) [

الأعراف : 143] ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة . يتجلى

لعباده المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه -

فلا تدركه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، تثبت الرؤية في

الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك
الأبصار) فالذي نفتته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه ،
فإن ذلك غير ممكن للبشر ، ولا للملائكة ولا لشيء . وقوله : (وهو يدرك الأبصار) أي :
يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه ; لأنه خلقها كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو
اللطيف الخبير) [الملك : 14] . وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين ، كما قال السدي
في قوله : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) لا يراه شيء وهو يرى الخلائق . وقال
أبو العالية في قوله تعالى (وهو اللطيف الخبير) اللطيف باستخراجها ، الخبير بمكانها .
والله أعلم . وهذا كما قال تعالى إخبارا عن لقمان فيما وعظ به ابنه : (يا بني إنها إن تك
مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن
الله لطيف خبير) [لقمان : 16] .